دراسة لقول الله تعالى:

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾

لفضيلة الدكتور: محمد بن عبد الرحمن أبو سيف الجهني[1]

مقدمة:

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له ، و أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً .

أما بعد :

فإن الله قد أعلن في كتابه الصلة بينه و بين الثقلين من خلقه في قوله: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ وجاء هذا الإعلان في تركيب جمع أصول البلاغة المقتضية لموافقة المقال لمقتضى الحال أتم الموافقة ، فدلت ألفاظه وتركيبه على المراد منه أحسن الدلالة

(١) الأستاذ المشارك بقسم العقيدة في الجامعة الإسلامية .

وأفصحها وأوضحها وأدلها، حتى لم يبق لقائل بعدها مقالاً ، ولا لمتأول لها مخرجاً ، ولا لعيي الفهم عذراً ، ولا لمعرض حجة ، ولا لمستكبرٍ وجهاً ، وحتى لم يبق لمتلقي هذا الإعلان من الثقلين إلا الإذعان و الخضوع و إسلام الوجه لله بلا ريب ولا تردد ولا إباء.

وهذا الإعلان يأتي في مرتبة تلي مرتبتي الفطرة والميثاق ، فإن الله فطر الخلق أول الأمر على إسلام الوجه له سبحانه كما قال سبحانه: «**إني خلقت عبادي حنفاء كلهم**»[1] ثم أخذ عليهم الميثاق على مقتضى الفطرة التي فطرهم عليها كما قال سبحانه : ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾[2] ثم هاهو سبحانه يعلن الصلة بينهم وبينه سبحانه معلناً لهم أنها هي الغاية من وجودهم .

وهذا الإعلان هو موضوع جميع رسالات الأنبياء والرسل عليهم الصلاة و السلام، هو موضوع الهدى الذي تكفل الله أن يؤتيه خلقه منذ أهبطهم إلى الأرض قال الله سبحانه : ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا

---

(١) حديث قدسي أخرجه مسلم ، ٤ / ٢١٩٧ ، رقم الحديث ٢٨٦٥ .

(٢) سورة الأعراف، الآية ١٧٢ .

يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [1] ، وقال سبحانه : ﴿ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴾ [2] .

فموضوع هذا الإعلان هو الهدى الذي يكون في كل أمة من خلقه لا تخلو منه أمة ، يُرسِل به أنبياءه ورسله ، ويُضَمّنه كتبه ، هو سبب إرسال الرسل ، وهو سبب نزول آيات كتب الله ، فإن الآيات المقررة للصلة بين الله وخلقه هي المقصود الأساس من إنزال الكتب ، وليست هي من جنس أسباب نزول آيات الأحكام التي تنزل حسب الوقائع والأحداث بل هي الهدى الذي تنزل الأحكام لتقيم الخلق عليه فيستقيموا فيه ، كما قال ﷺ : «**قل آمنت بالله ثم استقم**»[3] .

وفي الجملة فإن هذا الإعلان تذكيرٌ بالعهد الذي عهد به سبحانه إلى خلقه ، ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٦٠) وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ [4] .

وقد كتبت هذه الدراسة في تدبر هذه الآية الكريمة وسبر فقه معانيها ،

---

(١) سورة البقرة، الآية ٣٨ .

(٢) سورة طه، الآية ١٢٣ .

(٣) أخرجه مسلم ١ / ٦٥ رقم ٣٨ .

(٤) سورة يس، الآيتان ٦٠ – ٦١ .

وكان الباعث إلى ذلك : أني رأيت أقوال أهل العلم اختلفت في تفسيرها مع ظهور معناها بيناً بحيث يستبعد أن يكون اختلاف ، فعزمت على كتابة هذه الدراسة لإقرار الصواب الذي لا خطأ فيه من معناها بوجوهه اللغوية و الشرعية، وجعلتها على مباحث :

المبحث الأول : علاقة الآية بسياقها .

المبحث الثاني : معاني ألفاظ الآية .

المبحث الثالث : دلالات التراكيب في الآية .

المبحث الرابع : معنى الآية والأقوال فيه .

والعزم مني و التوكل على الله و التوفيق منه سبحانه لا شريك له وصلى الله على النبي وسلم تسليماً .

المبحث الأول : علاقة الآية بسياقها :

الآية واردة في ثلاث مراتب من السياقات ، فهي واردة في سورة الذاريات ، مما نزل في مكة ، في القرآن الكريم . فهذه ثلاثة مطالب :

المطلب الأول : علاقة الآية بسياقها في السورة :

هذه الآية : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ إحدى آيات سورة الذاريات التي عددها ستون آية رقم هذه الآية فيها «٥٦» أي في أواخر السورة.

وسياق السورة في مخاطبة الرب سبحانه المشركين معه غيره في

ألوهيته ، الذين عرفوه سبحانه بآياته ومخلوقاته ولم يشركوا معه غيره في خلقه وربوبيته ، ولكن شغلتهم الأسباب المباشرة ففروا إلى شواخص محسوسة يشاهدونها أمام أعينهم يظنون أن النفع يحصل من قبلها ، وأن الضر يدفع من قبلها ، فتوجهوا لها بطلب جلب النفع ودفع الضر ، وانهمكوا في تقديم القربات إليها لأجل ذلك فاتخذوها معبودات من دون الله الذي يعرفون أنه خالقهم ومعبوداتهم ، يملكهم ومعبوداتهم ، ومكّن هذا المنهج فيهم أنه إرث ورثوه عن آبائهم ، فستر داعي تقليد الآباء داعي المعرفة التي يعرفون والفطرة التي فطروا عليها ، إلا أن المركوز في فطرهم من معرفة ينازعهم فيرفع عنهم تمام الثقة في هذه المعبودات ، فيباشرون أسباباً أخرى تنبىء عن ذلك، فهم مثلاً يطلبون من معبوداتهم من دون الله الرزق ويتقربون إليها بالقربات لأجله، ثم يمارسون أسباباً أخرى تدل على أنه لم ينزل في جذر قلوبهم الاطمئنان التام اليقين إلى هذه المعبودات فيقتلون أولادهم من إملاق أو خشية إملاق ، ويمنعون السائل والمحروم ، فهم عابدون لغير الله قلقون غير مطمئنين في معيشتهم.

وجاءهم الرسول مذكراً فكذبوه وآذوه ولم ينتفعوا بتذكيره ، فأنذرهم عذاب الله وعقابه الذي جعل له أجلاً في يوم الدين ، فقابلوا النذارة بيوم الدين بمجرد الاستبعاد واستمروا يغمرهم اللهو .

والسورة في معالجة هذه الحال ، ابتدأها الرب سبحانه بالقسم بشواهد ربوبيته مخاطباً معرفتهم وما يقرون به من الربوبية وهو أسلوب يحمل جلال الربوبية وكبرياءها وهيبتها وعظمتها ، يقرع النفوس العصية ويردها إلى رشدٍ غفلت عنه ، وكرر القسم بربوبيته في ثنايا السورة فقال في الآية «٢٣» : ﴿ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ وهذه الأقسام : أقسم بها على أن يوم الدين واقع وفيه يذوقون فتنتهم على النار إن بقوا على شركهم ، أو متعتهم بالجنات والعيون إن هم اتقوا ربهم وأفردوه بالقربات ، فهي قضية محسومة ليست محل جدل واختلاف . والقسم بالربوبية وارد هنا ورود الدليل والبرهان ، فإن الرب الذي خلق ويدبر الأمر قادر على البعث والجزاء ، وهذا أمر لشدة ثبوته وتأكده يصح القسم فيه بالدليل على مدلوله وبالشيء على لازمه.

فهو قسم يحمل قوتين عظيمتين مهيبتين : قوة الحجة وهيبتها ، وقوة المحتج وهيبته ، وهذه الهيبة تقرع القلوب ولا ريب ، وتقمع نوازع المراء وشبهات الباطل ، فإذا وقع هذا القرع والقمع استيقظت القلوب وتحفزت لجدٍّ لا لهو فيه ، واستشعرت الصرامة والحزم ، وتهيأت لعقل حجة الحق والركون إليه.

وهنا يردهم ربهم سبحانه في تربية مهيبة جليلة إلى طمأنينة تنزع منهم قلقهم ، وتخلِّصهم مما قد يشغب على تلقيهم الذكرى بفهم وحضور عقل وانشراح صدر ، فيعالج قضيتين نفسيتين يعانون منهما .

الأولى: قضية الرزق: فيقول لهم ربهم: ﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ ويقول لهم : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ﴾ ويحكي لهم أنموذجاً من رزقه عباده ليس كأي أنموذج ، فهذا إبراهيم تبشره رسل ربه بغلام عليم من امرأته العجوز العقيم ، فتأمل أي طمأنينة تبثها هؤلاء الآيات للثقة برزق الله وسكون النفس بها ، حتى تهيأ الحال لأن يخبرهم سبحانه أن من صفات المتقين الموعودين بالنعيم في الآخرة أن يتقربوا إلى الله بحق في أموالهم للسائل والمحروم شأن من لا يخشى الفقر ، لا كهيئة المشرك القلق المتوتر الضنك الذي يمنع الحق من ماله خشية الفقر.

الثانية : قضية تقليد الآباء وحفظ إرثهم : فيذكر لهم ربهم قصة قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وآل فرعون وما حل بهم من عقوبات فهؤلاء آباؤهم الأوائل وأصحابهم في المنهج الذي هم عليه من الشرك بالله لم ينفعهم شركهم ولا آلهتهم شيئاً حين تعصبوا لها وتمسكوا بها فلم تغن عنهم من الله شيئاً .

وبعد هذه اللفتة التربوية البديعة يأتي عرض الذكرى ، وهي ذكرى ليس إلا ، إذ لا جديد فيها عليهم ، فهم مفطرون على معرفتها وأحكام هذه المعرفة ولكنهم مأفوكون عنها ، ولذلك قال : ﴿ وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ أي العارفين ربهم الموقنين به

المستحضرين ربوبيته الذين لم يؤفكوا عن لازم ما يعرفون .

وموضوع هذه الذكرى هو : الأمر بعبادة الله وحده لا شريك له وإفراده بالقربات و العبودية وعدم اتخاذ إله آخر معه قط .

وقد ابتدأ سبحانه في عرض الذكرى بإقامة الحجة و الدليل و البرهان لموضوعها ثم أمر به ، فقال: ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾[1] فذكر حجة استحقاقه الإفراد بالعبادة، فذكر ربوبيته الشاملة العامة التي انفرد بها بلا شريك ، فذكر خلقه للسماء والأرض وكل شيء ثم قال ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾أي هذه حجتنا نذكركم بها لعلكم ترجعون لما تقتضيه فطرتكم وعقولكم من أنه لا يستحق العبادة إلا الرب الذي خلق؛ ولذلك أمر عقب ذلك مباشرة بلازم هذه الحجة ومدلولها فقال : ﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ ﴾ وقال : فروا ولم يقل: اعبدوا؛ لأنه أراد منهم تحقيق إفراده بالعبودية بالانعتاق من عبادة غيره إلى عبادته وحده؛ ولذا أكد معنى الفرار بقوله عقبه : ﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ ﴾ وفي سياق عرض الذكرى ورد قوله سبحانه في الآية التي ندرسها : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ وفيه الحجة ومطلوبها و الدليل ومدلوله.

---

(١) سورة الذاريات، الآيات ٤٧ – ٤٩ .

فقولـه : ﴿ خَلَقْتُ ﴾ هـو الحجـة والبرهـان وقولـه ﴿لِيَعْبُدُونِ ﴾ هـو المطلوب والمدلول . فان انتفعوا بهذه الذكرى ، وعبدوا ربهم وحده لا شريك له فقد أدوا ما خلقوا له ، وإن لم ينتفعوا وبقوا على شركهم فقد خالفوا ما يجب أن يقع منهم - وهذه علاقة خاصة للآية بالآيات القريبة منها في السورة ، في شأن عرض الذكرى على المخاطبين ، ولها علاقة بعموم السورة يأتي ذكرها قريباً - .

ثـم بعد عرض الذكرى بحجتها الدامغة التي لا دافع لها والموجبة للانتفاع والاهتداء ، يشخص الرب سبحانه حالهم إن لـم ينتفعوا بها في أمرين : الأول : أن هذه طريقة المكذبين المعاندين من قبل ،الذين عوقبوا ، لـم ينتفعوا . الثاني : أنه لا حجة لهم يدافعون بها الحجة القائمة وإنما عندهم مجرد القذف والشتم والإفك والعدوان شأن الخلي من حجة إذا قامت عليه الحجة ، كما عند المكذبين قبلهم ، كأن بعضهم أوصى بعضاً بهذا ، قال سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ ﴾ ثم أعلن سبحانه نتيجة التشخيص وحقيقة حالهم : ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ أي: متعدون طغاة عن أمر ربهم ؛ غطاهم العصيان فلا يأتمرون بأمر ربهم ولا ينتهون عن نهيه متجاوزين الحد في ذلك[1] .

(١) انظر تفسير الطبري ، ٢٧/ ٦ .

وهنا تأتي لفتة تربوية حازمة يعالج الرب بها عدم انتفاعهم بالذكرى بعد ظهور حجتها وأخذهم فيها بما يزيل القلق والهوى ، فيقول لرسوله ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴾ أي: أعرض عن تكذيبهم ولا يصدنك عن الاستمرار في التذكير فإنه تكذيب لا حجة معه ولا وجه له، فإني لم أخلق الخلق إلا لعبادتي ، ولذلك أمره بالمضي في التذكير بعد هذه الآية بقوله : ﴿ وَذَكِّرْ ﴾ ثم يقول فيهم مهدداً ومتوعداً: ﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴾ وعلاقة الآية التي ندرسها : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ بعامة سياق سورة الذاريات ، أن المتأمل يرى فيها تلخيصاً بديعاً دالاً لجميع ما ورد في سياق السورة ، ووجه ذلك : أن هذه الكلمة ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾. فيها تعليل رسالة الرسول صلى الله عليه وسلم التي يذكر بها والرسل قبله الذين قص بعضهم في السورة؛ فلأن الله إنما خلق الخلق ليعبدوه بعث إليهم الرسل تخاطب بعبادته وتأمر بالفرار إليه .

وفيها تعليل خلق يوم الدين والجزاء فيه ، فلأن الله إنما خلق الخلق ليعبدوه رتب على عبادته الجزاء ، وخلق الجزاء لذلك؛ ولأن الله إنما خلق الخلق ليعبدوه أهلك الأمم الذين عتوا عن أمر ربهم ، وتوعد من فعل فعلهم بالمصير الذي أصابهم؛ ولأن الله إنما خلق الخلق ليعبدوه وعد من أجابه لمراده وأتى بالواجب عليه بالنعيم في الآخرة

ورزقهم من النعم في الدنيا .

فعبارة الآية فيها إيجاز بليغ جمع القضية وحجتها في كلمات معدودة ، فهو إنما استحق العبادة ؛ لأنه هو الذي خلق ؛ ولأن الحجة فيها غير مدفوعة فإن المعاندين لا حجة لهم فهم ﴿طَاغُونَ﴾ ﴿ٱلْخَرَّٰصُونَ﴾ ﴿هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ﴾ مأفوكون عن الحق أفكاً لا لحجة ، وما داموا كذلك ففي الآية استهجان لحالهم ، وتعريض بخروجهم عن الأصل الذي كان يجب أن يكونوا عليه .

وفي هذه الآية سر الأمر كله، وعلة الأمر كله، وحجة الأمر كله، وعليها مدار الأمر كله . قال ابن تيمية رحمه الله بعد أن استعرض ما أورده الله في مجمل سورة الذاريات : « فهذا كله يتضمن أمر الإنس والجن بعبادته وطاعته وطاعة رسله واستحقاق من يفعل العقوبة في الدنيا والآخرة ، فإذا قال بعد ذلك : ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾﴾ كان هذا مناسباً لما تقدم مؤتلفاً معه : أي هؤلاء الذين أمرتهم إنما خلقتهم لعبادتي ما أريد منهم غير ذلك ، لا رزقاً ولا طعاماً»[1] .

---

(١) الفتاوى ٨ / ٤٢ – ٤٣ .

المطلب الثاني : علاقة الآية بالمكي من القرآن

الآية من سورة الذاريات وهي مكية وفي أواخر ما نزل بمكة(١) .

وفي المكي من القرآن لم ينزل إلا الدعوة إلى التوحيد وذكر جزائه بذكر الميعاد والجنة والنار، قالت عائشة رضي الله عنها: « إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء : (لا تشربوا الخمر) لقالوا: لا ندع الخمر أبداً ، ولو نزل : (لا تزنوا) لقالوا : لا ندع الزنا أبداً ، لقد نزل بمكة على محمد ﷺ وإني لجارية ألعب : ﴿ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾ وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده»(٢).

أي: أن الأحكام لم تنزل حتى اطمأنت النفوس على الإسلام وتمكنت حقيقة التوحيد ، ونزلت الأمانة في جذور قلوب الرجال ، وانكشف عوار الشرك انكشافاً بيناً لا لبس فيه على أحد ، وسقطت كل شبهة قد يشتبه بها ممتنع عن التوحيد .

وهذه الحال التي نزلت الأحكام فيها هي التي كان يهيئ لها ويتدرج إليها التنزيل في مكة ، كان يقرر التوحيد ويثبت قواعده ، ويقيم

---

(١) انظر البرهان للزركشي ١ / ١٩٣ .

(٢) أخرجه البخاري ، الصحيح مع الفتح ٩ / ٣٩ ح ٤٩٩٣ .

حججه ، ويفند الشبه حوله ، ويهدم أصول الشرك ودواعيه هدماً .

وفي هذا السياق تأتي الآية : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ فهي من جنس مقاصد التنزيل في مكة بل فيها – كما ذكرنا – تلخيص بديع لقواعد التوحيد و حججه التي تزيل أصول الشرك وشبهه، فهي تقرر أن التوحيد هو الغاية من وجود الخلق ، وتنسب العبودية إلى مستحقها الذي خلق وبرأ ، وهي حجة تبرر خطابات الخالق لخلقه جميعها سواءً كانت أمراً أو نهياً أو بشارة أو نذارة .وتهدم أصول الشرك من جذورها فليس في الوجود ندٌّ خلق فيكون له في الخلق حق كحقه سبحانه .

المطلب الثالث : علاقة الآية بسياق القرآن

يقول ابن القيم رحمه الله : « نقول قولاً كلياً : إن كل آية في القرآن فهي متضمنة للتوحيد ، شاهدة به ، داعية إليه ، فإن القرآن : إما خبر عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله ، فهو التوحيد العلمي الخبري ، وإما دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له وخلع كل ما يعبد من دونه ، فهو التوحيد الإرادي الطلبي ، وإما أمر ونهي وإلزام بطاعته في نهيه وأمره، فهي حقوق التوحيد ومكملاته ، وإما خبر عن كرامة الله لأهل توحيده وطاعته ، وما فعل بهم في الدنيا ، وما يكرمهم به في الآخرة ، فهو جزاء توحيده ، وإما خبر عن أهل الشرك وما فعل بهم في الدنيا من

النكال ، وما يحل بهم في العقبى من العذاب ، فهو خبر عن حكم التوحيد ، فالقرآن كله في التوحيد وحقوقه وجزائه ، وفي شأن الشرك وأهله وجزائهم»[١] والآية كما قدمنا فيها أصول ذلك كله ففيها تقرير التوحيد والحجة له وتبرير كل الأحوال التي ذكرها ابن القيم رحمه الله.

المبحث الثاني : معاني ألفاظ الآية :

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾

(الواو) واو الاستئناف – ولهذا الاستئناف دلالات ستأتي في المبحث القادم – وليست واو العطف[٢] ، لأن المعنى الذي تضمنته الآية معنى مستأنف لم يسبق نظيره في حكم فيشرك بينهما بالعطف ، بل هو تبرير لما ذكر في السياق من خبر وقص وأمر ونهي ووعد ووعيد .

(ما) هي النافية ، وهو نفي يؤسس للاستثناء الآتي في الآية ، فهو نفي غير مقصود لذاته ولكن للاستثناء ، لتخليص المستثنى من الشركة .

(خلقت) الخلق : هو اختراع الشيء وتقديره في الوجود[٣] ، وخلقه سبحانه مخلوقاته هو إيجادهم من عدم . والتاء ضمير المتكلم يعود

---

(١) مدارج السالكين ٣ / ٤٥٠ .

(٢) خلافاً لابن عاشور في التحرير والتنوير ٢٤/٢٧ فقد جعلها للعطف وتكلف في تعيين المعطوف عليه .

(٣) انظر معجم مقاييس اللغة ٢ / ٢١٣ .

إليه عز وجل ، وهي في محل رفع فاعل فعل الخلق ، فهو سبحانه الخالق لا غيره . والخلق هو قاعدة الربوبية وينبني عليها أصلان في الربوبية هما : الملك والتدبير ، فإن الخالق يملك ما خلق ، والمالك هو الذي يتصرف في ملكه .

(الجن) هم الجنس من المخلوقات الذين قال الله في خلقهم ﴿ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴾[1] ، ﴿ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴾[2] وهم مخاطبون بالرسالات مكلفون بها كما قال سبحانه: ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ﴾[3] وقال : ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ

(١) سورة الحجر، الآية ٢٧ .

(٢) سورة الرحمن، الآية ١٥ .

(٣) سورة الأنعام، الآية ١٣٠.

مُّبِينٍ ﴾[1] ، وهم فريقان مسلمون موحدون وكافرون كما حكى الله عنهم مقراً قولهم : ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَاسِطُونَ ﴾[2] ، والمسلمون منهم الصالحون ومنهم أهل طرائق وأهواء دون الصلاح كما حكى الله عنهم مقراً قولهم :﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴾[3] ، وهم ولد إبليس كما أن البشر بنو آدم – كما في قول الحسن البصري وقتادة وابن زيد وروي نحوه عن ابن عباس- [4]، وسموا جنا لأنهم مجتنون أي مستترون عن أعين الناس[5] ، قال سبحانه : ﴿ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾[6].

(الواو) واو العطف التي معناها الجمع ، وهي هنا جمعت المعطوف والمعطوف عليه في حكمين:

١- في كونهما جميعاً خلق الله عز وجل .

٢- في علة الخلق .

---

(١) سورة الأحقاف، الآيات ٢٩-٣٢ .

(٢) سورة الجن، الآية ١٤ .

(٣) سورة الجن، الآية ١١ .

(٤) تفسير القرطبي ١/٢٩٤.

(٥) انظر معجم مقاييس اللغة ١ / ٤٢٢ .

(٦) سورة الأعراف، الآية ٢٧ .

وهي هنا من عطف الشيء على سابقه؛ لأن خلق الجن سابق على خلق الإنس كما ورد في كتاب الله ، قال الله : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝٢٦ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾[1] أي من قبل خلق الإنسان ، وهذا ظاهر فإن إبليس كان من قبل خلق آدم.

(الإنس) وهم بنو آدم ، وسموا بذلك لظهورهم ، من الأنس وهو ظهور الشيء ، يقال : آنست الشيء إذا رأيته[2]، قال الله : ﴿قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾[3]، فهو اسم معناه مقابل لمعنى اسم (الجن) .

(إلا) حرف للاستثناء ، والاستثناء هو إخراج بعض الكلام مما هو داخل فيه[4] ، فهو نقل للكلام من العموم إلى الخصوص ، والأصل في نقل الكلام للحروف لا للأسماء فـ (ما) تنقل الكلام من الإثبات إلى النفي ، و(هل) تنقل الكلام من الخبر إلى الاستفهام وهكذا. ولذلك كانت (إلا) أصل أدوات الاستثناء ، وما عداها من الأدوات فمحمول عليها لأنه إما اسم كـ (غير) أو فعل كـ (عدا) .

و(إلا) إذا وقعت بعد إثبات لزم إخلاص ما بعدها للنفي ، كأن تقول :

---

(١) سورة الحجر، الآيتان ٢٦-٢٧ .

(٢) انظر معجم مقاييس اللغة ١ / ١٤٥ .

(٣) سورة القصص، الآية ٢٩ .

(٤) انظر معجم مقاييس اللغة ١ / ٣٩٢ .

مررت بالقوم إلا زيداً ، فنفت المرور عن زيد وحده ، وإذا وقعت بعد نفي لزم إخلاص ما بعدها للإثبات ، كأن تقول : ما مررت بالقوم إلا زيداً ، فأثبتت المرور لزيد وحده.

فهي يلزم منها أن يكون ما بعدها على خلاف ما قبلها في النفي والإثبات[١]. فالاستثناء من النفي إثبات والاستثناء من الإثبات نفي .

(اللام) حرف للتعليل ، والفعل بعدها (يعبدوا) منتصب بأن مضمرة – على مذهب جمهور النحاة[٢] – فيكون التقدير : «لأن يعبدون» ، وأن والفعل بعدها تأول بالمصدر فيكون المعنى : (لعبادتي) ، أو الفعل منصوب بعدها بكي المصدرية – على مذهب بعض النحويين[٣] – فيكون التقدير : (لكي يعبدون)، أو الفعل بعدها منصوب باللام نفسها أصالة – على مذهب بعض الكوفيين[٤] ، أو باللام نفسها نيابة عن (أن) على مذهب بعض النحويين[٥] فيكون التقدير : (إلا أن يعبدون) .

---

(١) انظر الاستغناء في أحكام الاستثناء ١١٥ .

(٢) انظر مغني اللبيب ١ / ٢١٠ .

(٣) انظر مغني اللبيب ١ / ٢١٠ .

(٤) انظر مغني اللبيب ١ / ٢١٠ .

(٥) انظر مغني اللبيب ١ / ٢١٠ .

وللتعليل معان سيأتي ذكرها في المبحث القادم

(يعبدون) هذا فعل ، والفعل يلاحظ فيه ثلاثة أمور يعبر به عنها : إرادته ، والقدرة عليه ، ووقوعه[1]. و(يعبدون) معبر به عن الإرادة أي أريد أن يعبدون ، ويدل له أمران:

١- قوله في الآية بعدها : ﴿ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴾ فعلق الفعل بالإرادة وهو يفسر المعبر به بفعل (يعبدون) فيكون بمعناه، فيكون المعنى : أريد منهم أن يعبدون ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون .

٢- أنه لا يحتمل التعبير به عن الوقوع ولا عن القدرة ، أما عدم احتمال التعبير به عن الوقوع فلأن أكثر الخلق لم يقع ولا يقع منهم أن يعبدوا الله وحده ، قال سبحانه : ﴿ وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴾[2] ، والآية نفسها في التعريض بمخالفة المشركين للواجب عليهم من عبادة الله وخروجهم عن مقتضاه إلى عبادة سواه سبحانه ، وأما عدم احتمال التعبير به عن القدرة؛ فلأن الله وإن كان قادراً على أن يجعل الخلق عابدين له إلا أنه شاء ألاَّ

---

(١) انظر مغني اللبيب ٢ / ٦٨٨ .

(٢) سورة يوسف، الآية ١٠٣ .

يهديهم أجمعين ، قال سبحانه : ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾[١] وقال: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَأٓتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾[٢] والآيات في هذا المعنى عديدة .

قال الكفوي : « ما وصف بكونه مراداً بلا وقوع له فليس المراد به إلا إرادة التكليف به فقط ، فليس المراد بقوله : ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ وقوع العبادة بل الأمر بها»[٣].

فيكون معنى : ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾ لآمرهم بعبادتي ، وأكلفهم بطاعة الأمر ، سواء وقعت منهم الطاعة أو لم تقع ، فإن الوقوع غير ملاحظ في الفعل ولم يعبر به له بل لإرادته .

وإذا كان ذلك كذلك فإن العبادة المرادة في الفعل هنا هي العبادة الشرعية التي هي : « اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال و الأعمال الباطنة و الظاهرة»[٤] ويكون المراد من الخلق أن يخضعوا لما يحبه الله ويرضاه من الأقوال و الأعمال الباطنة والظاهرة خضوعاً

(١) سورة يونس، الآية ٩٩ .

(٢) سورة السجدة، الآية ١٣ .

(٣) الكليات ٧٦ .

(٤) الفتاوى ١٠ / ١٤٩ .

مع حب؛ لأن أصل معنى العبادة في اللغة الذل والخضوع ، ولكن العبادة الشرعية تتضمن معنى الذل ومعنى الحب جميعاً ، فهي تتضمن غاية الذل لله بغاية المحبة له ، فإن من خضع لشيء مع بغضه له لا يكون عابداً له ومن أحب شيئاً ولم يخضع له لم يكن عابداً له. ولهذا لا يكفي أحدهما في عبادة الله تعالى ، ولا يستحق المحبة والذل التام إلا الله(1).

وما يحبه الله ويرضاه إنما يعلم بأمره ونهيه الذي تبلغه عنه رسله . وهذا المعنى العام هو المراد من العبادة في الآية وليس المراد أفراد العبادات المأمور بها في شريعة من شرائع الرسل بعينها - لأن شرائع الرسل تتنوع ، فما تؤمر به أمة في عصر يختلف عما تؤمر به أمة في عصر آخر مع الاتفاق في الملة و الأصول عامة - ولكن المراد هو توحيد الله بأفعال العباد وتقربهم إليه بشرائعه.

المبحث الثالث : دلالات التركيب في الآية :

في الآية الكريمة : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ تراكيب لغوية لها دلالات معنوية ،فتركيب جملة الآية في موقعها من السياق

---

(1) انظر الفتاوى ١٠ / ١٥٣ .

الاستئناف ، ولهذا الاستئناف دلالته ، وتركيب عبارة الآية بعضها إلى بعض استثناء من نفي ، وهذا التركيب يسمى بـ (القصر) أو (الحصر)، ولهذا القصر دلالته ، وفي الآية جمع بعطف الإنس على الجن ، ولهذا الجمع دلالته ، وفي الآية تعليل في ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾ ولهذا التعليل دلالته ، فهذه أربعة مطالب .

المطلب الأول : دلالة الاستئناف :

سبق أن ذكرنا أن (الواو) في مفتتح الآية للاستئناف؛ لأنها لو كانت للعطف لم يكن لها دلالة سوى الإشراك في معنى ، فالواو العاطفة لا تفيد مع الإشراك دلالة أخرى ، والآية لم تسبق بما يشترك معها في معنى لتعطف عليه .

وقول ابن عاشور في تفسير الآية:«الأظهر أن هذا معطوف على جملة ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ﴾ الآية التي هي ناشئة عن قوله ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ إلى ﴿وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ عطف الغرض على الغرض لوجود المناسبة»[1] فيه نظر ، فإن تقدير ما يعنيه ابن عاشور هو : «ما أرسلنا من رسول إلا ليأمر بعبادة الله وحده وما خلقت الخلق إلا لآمرهم بعبادتي» فيكون خلق الخلق مشتركاً مع إرسال الرسل في الغرض وهو عبادة الله وحده ولذلك عطف عليه ،

---

(١) التحرير والتنوير ٢٧ / ٢٤ – ٢٥ .

لمجرد الاشتراك لا لمعنى آخر .

وهذا المعنى في هذا التقدير وإن كان صحيحاً إلا أنه ترد عليه أمور :

١- أنه غير ملفوظ في الآيات .

٢- أن حمل الآيات عليه متكلف؛ لأنه جمع لعدة آيات استقل كل منها بمعنى فى معنى يفهم منها لتكون آية (ما خلقت ..) معطوفة عليه، فإن آية ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ أمر عام بعبادة الله وآية : ﴿وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾ أمر بضابط العبادة وأنها مع الشرك لا معنى لها[1]، وآية ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ﴾ بيان لموقف المشركين من الرسل وما أجابوهم به . فهذه معانٍ متباينة وردت كل آية لتفيد واحداً منها ، ثم يفهم من الآية الأخيرة ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى . . .﴾ أن الرسل جاءت بما في الآيتين قبلها . فالتقدير الذي أراده ابن عاشور فهمٌ غير ملفوظ في الآيات ناشئ عن تقديم وتأخير في الآيات ، ومثل هذا وإن صح فهماً إلا أن الحكم به على الواو بأنها للعطف تكلف ، فإن العطف يكون على مذكور منطوق أو محذوف دل عليه مذكور .

(١) انظر حاشية ابن المنير على الكشاف : «الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال» ٤ / ٣١ .

٣- أن للاستئناف مزيد معنى تدل عليه عبارة الآية لا يكون مع العطف .

٤- أن المعنى المذكور في التقدير وهو إرسال الرسل للأمر بعبادة الله وحده لا يفوت بالقول بالاستئناف .

وعلى كل حال فإن معرفة الفصل والوصل في الكلام من أعظم أركان البلاغة حتى عرف بعضهم البلاغة بأنها (معرفة الفصل والوصل) وجعله الجرجاني من أسرار البلاغة ومما لا يأتي لتمام الصواب فيه إلا الأعراب الخلص، والأقوام طبعوا على البلاغة وأتوا فناً من المعرفة في ذوق الكلام هم بها أفراد[١].

هذا و الاستئناف في الآية التفات إلى دلالات مهمة :

أحدها: تبرير ما ذكر في سياق السورة كما تقدم، ومنه إرسال الرسل بالأمر بعبادة الله وحده، فإن الله إنما أرسل الرسل بذلك لأنه خلق الخلق له، وهذا من تدبيره الذي أجرى به قضاءه سبحانه: ﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًاۢ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى ﴾[٢].

ومن دلالات الاستئناف : التعريض بالمشركين إذ خرجوا عما يجب أن يكونوا عليه من توحيد الله وإفراده بالعبادة وتقريعهم وتوبيخهم ،

(١) انظر دلائل الإعجاز ١٧٠ .

(٢) سورة طه، الآية ١٢٣ .

وتقدير المعنى : أتشركون وما خلقتكم إلا لعبادتي؟!.

ومن دلالاته : تأكيد الأمر بعبادة الله وحده ، بأقصى غاية التأكيد وهو تعليل وجودهم به.

المطلب الثاني : دلالة القصر :

في الآية استثناء بعد نفي، وهذا أسلوب من أساليب القصر ، يقصر فيه المستثنى منه على المستثنى ويحصره فيه لا غير ، والمقصور في الآية هو علة خلق الله الخلق على إرادته أن يعبدوه ، ومفهومه أن لا غاية من خلق الخلق إلا هذه .

والقصر نوعان :

حقيقي : وهو تخصيص شيء بشيء بالنسبة إلى جميع ما عداه بحيث لا يتجاوزه على الإطلاق .

وإضافي : وهو تخصيص شيء بشيء بالنسبة إلى بعض ما عداه[1].

ولذلك فإن القصر في الآية إضافي؛ لأن فيه تخصيص العلة من خلق الخلق في إرادته سبحانه أن يعبدوه بالنسبة إلى مراده الشرعي ، فلا علة لخلق الخلق من حيث مراده الشرعي عز وجل إلا هذه لا غير ، ولكن ثمة علل أخر بالنسبة إلى مراده القدري الكوني منها:

(١) انظر الكليات ٧١٦ – ٧١٧ .

اختلافهم في الدين وعدم اجتماعهم عليه كما قال سبحانه : ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾(١) فجعل سبحانه اختلافهم علة خلقهم ثم قال : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ أي كلمته القدرية الكونية فعلق العلة المذكورة بإرادته القدرية لا الشرعية .

ومنها التعارف قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾(٢). فعلل بـ﴿ لِتَعَارَفُوا ﴾ وعلق هذه العلة بكونهم شعوباً وقبائل فهي متعلقة بصفة وجودهم الذي قدره كوناً لا شرعاً .

وعلل سبحانه خلقه عبده عيسى عليه السلام على الصفة التي ذكر في كتابه بأنه آية ورحمة فقال : ﴿ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾(٣) فذكر العلة وعلقها بأمره القدري لا الشرعي .

ويشهد لكون القصر في الآية إضافياً وأنه قصر بالنسبة لأمره الشرعي سبحانه ، قوله في الآية بعدها : ﴿ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴾ فنفى أن تكون إرادته القدرية الكونية في رزقهم التي قال

---

(١) سورة هود، الآية ١١٨ ، وانظر التحرير والتنوير ٢٧ / ٢٦ – ٢٧ .

(٢) سورة الحجرات، الآية ١٣ .

(٣) سورة مريم، الآية ٢١ .

فيها في السورة نفسها : ﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ علة ، فظهر أن التعليل في الآية متعلق بإرادته الشرعية لا القدرية .

ثم إن القصر الإضافي ثلاثة أقسام : «قصر إفراد وقلب وتعيين ، فقولنا : (ما قام إلا زيد) لمن اعتقد أن القائم هو زيد وعمرو كلاهما قصر إفراد ، ولمن اعتقد أن القائم عمرو لا زيد : قصر قلب ، ولمن تردد أن القائم هل هو زيد أو عمرو : قصر تعيين»[1] ، وبالنظر إلى فعل المخالفين في شركهم مع الله غيره في العبادة واعتقادهم أن العبادة لا تكون لواحد بل لا تكون إلا لمعبودات متعددة حتى قالوا : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٌ ﴾ [2] فجزموا ببطلان إفراد الله في العبادة وحكموا بفساد الدعوة إلى إفراده بالعبادة ، وقال قوم شعيب : ﴿ قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴾[3] فجزموا أن ترك المعبودات إلى عبادة الله وحده ليس من الحلم و الرشد ، وهذا منهم مع إقرارهم بإفراد الله في خلقهم ﴿ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَهُمۡ لَيَقُولُنَّ

---

(١) الكليات ٢١٧ .

(٢) سورة ص، الآية ٥ .

(٣) سورة هود، الآية ٨٧ .

ٱللَّهُ ﴾ [1] وظنهم أن عبادة غيره سبحانه من القيام بحقه عليهم فقالوا : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ [2].

بالنظر إلى هذا وهو اعتقادهم أن العبادة تكون لآلهة متعددة لا لإله واحد فإن القصر في الآية : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ قصر قلب ، أي إلا ليعبدوني وحدي لا ليشركوا معي غيري في العبادة ، فهو إبطال للشرك ورد له .

وينبغي التنبيه إلى أن كل علة يعلل بها خلق الخلق غير هذه العلة المذكورة في هذه الآية ﴿ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ فإن مصير أمرها وغايته ومؤداه إلى هذه العلة في هذه الآية لا غير ، فجميع العلل مرتبة على هذه العلة ، وعلى سبيل المثال فإن العلل المذكورة آنفا عند ذكر اختلاف الخلق ، وخلقهم شعوباً وقبائل ، وخلق عيسى عليه السلام ، تعود بالتدبر إلى العلة ذاتها ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ ، فإن الله خلق الخلق؛ ليختلفوا، فيظهر حقه عليهم في أن يعبدوه في هداية العابدين، وإظهارهم، وإثابتهم، وضلال المخالفين، وكبتهم ومعاقبتهم ، فإن الشيء يعرف بضده ، وتمت كلمته ليملأن جهنم ليتقرر وجوب أمره أن يعبدوه، وإلا لما عذب من خالفه .

---

(١) سورة الزخرف، الآية ٨٧ .

(٢) سورة الزمر، الآية ٣ .

وخلقهم شعوباً ليتعارفوا فيهتدي العاصي فيهم بالطائع ويأمر بعضهم بعضاً بالتقوى ولذلك قال بعد قوله : ﴿لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ : ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾ فالأعبد لله هو الأتم حالاً الذي تقتضي معرفته الاقتداء به[1].

وخلق سبحانه عيسى؛ ليكون آية للناس، فتتم الحجة عليهم بتمام ربوبيته ووجوب لازمها من أن يعبدوه ، فهو آية وعلامة على حقه عليهم سبحانه ، فلو لم يكن خلقهم لعبادته لما احتاج الأمر إلزامهم حجة يقيمها عليهم، لا يكون لهم معها مخالفة أمره .

وقد كتب الشيخ محمد الأمين الشنقيطي تنبيهاً لطيفاً في اختلاف المذكور في آيات الكتاب في الحكمة من خلق الخلق ، وبين أنه لا يخالف بعضها بعضاً، بل بعضها مرتب على بعض[2].

هذا ، وللقصر الذي ركبت الآية عليه دلالة بليغة على أن الواجب على العبد الاشتغال بطاعة الله وحده، فلا يكون منه قصد إلا وجه الله ولا عمل إلا بشرع الله ، فيكون هذا دأبه في الحياة في سائر حركته فيها، كل حركة منه عبادة لله ، حتى سعيه في مناكب الأرض، لا يكون

---

(١) انظر التفسير الكبير للرازي ٢٧ / ٢٣٣ .

(٢) أضواء البيان ٧ / ٦٧٤ – ٦٧٧ .

إلا عبادة منه لله وطاعة لأمره، لا انشغالاً بالرزق فقد قال: ﴿ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ أي ما أريد منهم أن يرزقوا أنفسهم ويطعموا أنفسهم، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما[١]؛ ولذلك قال سبحانه: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ﴾[٢] فسعيهم لطلب الرزق طاعة لله في قوله: ﴿ فَٱمْشُوا۟ ﴾ ولكنهم ليسوا هم من سخر الأرض للغرس و البناء، وأنواع الحاجات بل هو أذلها لهم، ثم ما يحصل لهم من رزق بسعيهم هو رزقه إياهم، لا رزقهم أنفسهم، فالانشغال بالرزق لا يجتمع مع الانشغال بالعبادة، كما ورد في الحديث القدسي، قال الله: «ابن آدم تفرغ لعبادتي أملأ صدرك غنى، وأسد فقرك وإلا تفعل، ملأت صدرك شغلاً، ولم أسد فقرك»[٣] وهذا معنى ما يروى «يا ابن آدم خلقت كل شيء لك، وخلقتك لي، فبحقي

(١) انظر تفسير الطبري ٨/٢٧، وانظر زاد المسير ٨ / ٤٣.

(٢) سورة الملك، الآية ١٥.

(٣) أخرجه أحمد ١٤ / ٣٢١ رقم ٨٦٩٦، والترمذي ٤ / ٥٥٤ رقم ٢٤٦٦، وابن ماجه ٢ / ١٣٧٦ رقم ١٣٧٦، وصححه ابن حبان – الإحسان ١ / ٣٠٦ رقم ٣٩٤، والحاكم ٢ / ٤٤٣.

عليك ألاّ تشتغل بما خلقته لك ، عما خلقتك له»[1] وفي حديث إسرائيلي : «يا ابن آدم خلقتك لعبادتي، فلا تلعب ، وتكفلت برزقك فلا تتعب ، فاطلبني تجدني، فإن وجدتني وجدت كل شيء ، وإن فتك فاتك كل شيء ، وأنا أحب إليك من كل شيء»[2] ، قال ﷺ : « **من أعطى لله ومنع لله وأحب لله وأبغض لله وأنكح لله فقد استكمل الإيمان**»[3].

المطلب الثالث : دلالة الجمع .

المراد بالجمع في الآية عطف الإنس على الجن كما تقدم ، وهو يجمعهما كما تقدم في أمرين :

أن كلاً منهما خلق الله عز وجل.

وأنه خلقهما لعلة واحدة وهي أن يعبدوه.

وها هنا سؤال يوقفنا الجواب عليه على دلالة الجمع في الآية وهو :

---

(١) أورده ابن تيمية في الفتاوى ١ / ٢٣ ، ولم أجده في كتب الروايات ولعله كالذي بعده من الإسرائيليات .

(٢) ذكره ابن تيمية في الفتاوى ٨ / ٥٢ .

(٣) أخرجه أحمد ٢٤ / ٣٨٣ رقم ١٥٦١٧، والترمذي ٤ / ٥٧٨ رقم ٢٥٢١ ، وأبو داود ٤ / ٢٢٠ رقم ٤٦٨١ ، وصححه الحاكم ١٦٤/٢ ، وانظر السلسلة الصحيحة رقم ٣٨٠ .

ما وجه تخصيص الجن والإنس بالذكر في الآية مع كون جميع الموجودات تشترك معهما في الأمرين ، فالجميع خلق الله ، والجميع خلق لعبادته فإنه قال : ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ (١) وقال : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ﴾ (٢) فكون الجميع مسبحين بحمده ساجدين له أي يعبدونه دال على أنهم خلقوا لذلك ، فلماذا لم يجمعوا مع الجن والإنس بالذكر؟! فإن كان الجواب : لأن عبادة كل شيء له بالتسخير لا بالتكليف وعبادة الجن و الإنس بالتكليف أمراً ونهياً؛ ولذلك خصوا بالذكر، فيقال : فما بال الملائكة لم يذكروا وهم خلق مكلف يؤمر وينهى قال الله : ﴿لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ (٣) وفي الكتاب : ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ (٤) والغاية من خلقهم عبادة الله ولذلك قال فيهم : ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ (٥)

---

(١) سورة الإسراء، الآية ٤٤ .

(٢) سورة الحج، الآية ١٨ .

(٣) التحريم ٦ ، هذا وإن كان في الذين على النار من الملائكة إلا أن جنس الملائكة واحد.

(٤) سورة مريم، الآية ٦٤ .

(٥) سورة الأنبياء، الآية ٢٦ .

وقال: ﴿ وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ﴾[1]، فالجواب: أنهم خلق لا تمكن منهم المعصية ، عصمهم الله من أن يخالفوا أمره ، فتكليفه إياهم ليس على سبيل الابتلاء والامتحان.

وحاصل الأمر أن الجن والإنس إنما خصوا بالذكر لأنهم هم المكلفون بالعبادة على سبيل الابتلاء والامتحان من بين جميع الخلق، وأصناف الخلق غيرهم إما مسخر للعبادة تسخيراً لا تكليفاً أو مكلفون لا على سبيل الابتلاء؛ لأنهم لا تمكن منهم المعصية.

فتحصل من هذا الجمع دلالته أن معنى : ﴿لِيَعْبُدُونِ ﴾: لآمرهم بالعبادة على سبيل الابتلاء ، وهذا المعنى قررته الآيات في كتاب الله، قال الله : ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾[2] وقال : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾[3] وقال : ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾[4] وهؤلاء الآيات مفسرة لقوله في

---

(١) سورة الزخرف، الآية ١٩ .

(٢) سورة الملك، الآية ٢ .

(٣) سورة هود، الآية ٧ .

(٤) سورة الإنسان، الآيتان ٢ ، ٣ .

آية الذاريات ﴿إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ أي إلا لآمرهم وأنهاهم على سبيل الابتلاء ، وهذا يختص به الجن والإنس؛ ولذلك خُصوا بالذكر وجمع بعضهم إلى بعض لإشراكهم في الحكم .

وقد يرد سؤال هنا ، وهو : لماذا ذكر الجن والخطاب إنما هو للمشركين من الإنس ؟! ، فالجواب : أن إخباره في الآية عن علة الخلق إنما هو تقرير عام يشمل جميع أفراده، لا يختص بالطائفة المخاطبة ؛ ولذلك قلنا في المقدمة من هذا البحث: إن هذا إعلان عام وهو موضوع الهدى الذي تكفل الله أن يجعله في الثقلين من حين أهبطهما إلى الأرض ، فلما كان هذا تقريراً عاماً ذكره على وجهه من العموم مشتملاً على جميع أفراده ، خاصة وأن الجميع الجن والإنس مخاطبون بالرسالات نفسها ، وهذا من دلالة الجمع أيضاً : أن الجن مكلفون برسالات الرسل كهيئة الإنس وإن تنوعت الشرائع .

وتحصل من ذكر الجن فائدة أشار إليها ابن عاشور[1] وهي تنبيه المشركين بأن الجن غير خارجين عن العبودية لله ، وجعل ابن عاشور تقديم الجن بالذكر للاهتمام بهذا الخبر الغريب عند المشركين الذين كانوا يعبدون الجن . وهما فائدة تحصل ولكن لا يظهر أن العبارة

(١) انظر التحرير والتنوير ٢٧ / ٢٨ .

ركبت لأجلها كما جزم ابن عاشور . وإنما ذكر الجن للعلة التي ذكرناها، وهي كونهم مكلَّفين على وجه الابتلاء ، وقدموا للعلة التي ذكرنا سابقاً، وهي أنهم سابقون في الوجود والله أعلم .

المطلب الرابع : دلالة التعليل .

تقدم أن اللام في: ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾ لام التعليل ، ومعلوم أن إثبات الشيء معللاً آكد في النفس من إثباته مجرداً عن التعليل . وهذا التعليل واقع بعد استثناء ، فهو استثناء من الأسباب عند اللغويين[1]. والعلة عندهم هي السبب لا فرق بينهما[2] ، والسبب عندهم هو : ما يلزم من وجوده الوجود ومن عدمه العدم لذاته[3]. وكونه يلزم من وجوده الوجود لذاته احتراز من الشرطية؛ لأن الشرط لا يلزم من وجوده الوجود ، وهذا يدل على معنى جليل في هذه الآية وهو : أن الله تعالى يستحق العبادة لذاته عز وجل ، لا لكونه خلق الخلق فقط ، فليس خلق الخلق شرطاً لاستحقاقه العبادة من غيره بحيث إنه لو لم يخلق لم يكن مستحقاً للعبادة من غيره لذاته ، ولكنه سبب استحقاقها . وكونه يلزم من عدمه العدم احتراز من المانع لأن المانع؛ لا يلزم من

(١) انظر الاستغناء ٥٨٩ و ٦١٠ .

(٢) انظر الكليات ٥٠٤ .

(٣) انظر الاستغناء ٥٥٩ .

عدمه شيء ، وهذا يدل على معنى جليل في الآية وهو أن عدم حصول العبادة من الخلق لا يمنع أن الله هو المستحق للعبادة .

وكونه يلزم لذاته احتراز من أن يخلفه سبب آخر، فيقوم مقامه؛ لأن الأسباب تتعدد ويخلف بعضها بعضاً ، فإذا لزم سبب معين لذاته امتنع أن يكون غيره سبباً .

و الأسباب المستثنى منها لم ينطق بها في الآية فهي غير مذكورة وهذا يدل على الاستغراق ، ففيه استثناء هذا السبب المذكور من جميع الأسباب عامة على الاستغراق .

وكون المستثنى سبباً والمستثنى منه جميع ما يكون سواه من الأسباب فهو استثناء متصل ؛ لأن المستثنى سبب من جنس الأسباب واستثناؤه منها يعود عليها جميعها بالنقض ، فهو سبحانه لم يخلق الخلق لحاجته إليهم مثلاً ولا لمغالبة نظير، ولا لأي سبب قد يتوهم . وهذا يشهد لما ذكرناه في دلالة القصر من أن ما ذكر في الآيات من علل الخلق مرتب على هذه العلة ودال عليها .

والعبادة سبب لخلق الخلق من جهتين :

الأولى : من جهة مقتضى الحال ، فإن مقتضى الحال أن الخالق مستحق للعبادة، لا يجوز صرفها لغيره ، وصرفها لغيره أعظم المنكر على المعنى الصحيح الوارد في حديث ضعيف عن أبي الدرداء قال :

قال رسول الله ﷺ : «**قال الله : إني والجن والإنس في نبإ عظيم أخلق ويعبد غيري، وأرزق ويشكر غيري**»[(١)].

الثانية : من جهة إرادة الخالق سبحانه، فإنه أراد منهم العبادة شرعاً ولم يأمرهم بالكفر أو الشرك بل أمرهم بها.

المبحث الرابع : (معنى الآية و الأقوال فيه)

مما تقدم في المباحث السابقة يتضح أن معنى قوله سبحانه: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ إلا لآمرهم بالعبادة الشرعية على جهة الابتلاء؛ لأنظر من يحسن عملاً فيطيع أمر ربه ويمتثل شرعه ، ومن يسيء فيعصي ويكفر .

فالآية عامة تشمل جميع المكلفين من الثقلين والمقصود بالعبادة فيها العبادة الشرعية المعلقة بطاعة الأمر والنهي الشرعيين ، وتدل على هذا المعنى أدلة :

١ - أن الاستقراء من كتاب الله دال على أن المراد بعبادة الله في استعمال القرآن العبادة التي أمرت بها الرسل، وهي عبادته وحده لا

---

(١) شعب الإيمان للبيهقي ٤ / ١٣٤ رقم ٤٥٦٣ ، والفردوس ٣ / ٢٢٥ رقم ٤٥٠٦ وانظر الجامع الصغير ٨١/٢ ، والدر المنثور ١١٧/٦ وفيض القدير ٤٦٩/٤ .

شريك له ، هي التوحيد المطلوب من الخلق ، هي العبادة التي تكون مخالفتها والخروج عن مقتضاها بعبادة غير الله .

قال الله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ ﴾ (١) وقال : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ (٢) وقال : ﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ ﴾ (٣) قال: ﴿ وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ (٤) وقال: ﴿ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ (٥) وقال: ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٦٠) وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ (٦) وقال سبحانه : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَآبِ ﴾ (٧).

ونحو هؤلاء الآيات ، وفي آيات عديدة قرن الله الأمر بالعبادة بالنهي

(١) سورة البقرة، الآية ٢١ .

(٢) سورة النحل، الآية ٣٦ .

(٣) سورة الأنعام، الآية ١٠٢ .

(٤) سورة الزخرف، الآية ٤٥ .

(٥) سورة الكهف، الآية ١١٠ .

(٦) سورة يس، الآيتان ٦٠-٦١ .

(٧) سورة الرعد، الآية ٣٦.

عن الشرك، فذكرهما معاً جميعاً مقترنين، وفي ذلك دلالة بينة على أن المراد بالعبادة التوحيد وإفراد الله بها؛ لأنه نهي عن عبادة غير الله مع الله وأمر بالتوحيد، وإفراد الله بالعبادة ، قال الله : ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾[1] وقال سبحانه : ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشۡرِكَ بِهِۦٓۚ﴾[2] وقال : ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَدۡعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِهِۦٓ أَحَدٗا﴾[3] وقال: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾[4] وقال : ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗا﴾[5].

٢- ما تقدم ذكره من أن المعنى المعبر عنه بالفعل في الآية هو الإرادة ، أي أريد أن يعبدون ، وقد تقدم ذكر أدلة ذلك ، وتقدم بيان تعيُّن أن يكون المراد بالإرادة هنا الإرادة الشرعية التي هي الأمر والنهي

(١) سورة النساء، الآية ٣٦.

(٢) سورة الرعد، الآية ٣٦ .

(٣) سورة الجن، الآية ٢٠ .

(٤) سورة آل عمران، الآية ٦٤ .

(٥) سورة النور، الآية ٥٥ .

والتكليف بهما فقط .

٣- أن هذا المعنى : (إلا لآمرهم بالعبادة ابتلاءً) دلت عليه آيات أخرى في كتاب الله ، وجاءت دلالتها له على وجهين : إما مفسرة له ، أو شاهدة له .

أما المفسرة فنحو قوله سبحانه : ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [(١)] وقوله : ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ ﴾ [(٢)] وقوله : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [(٣)] وقوله : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾[(٤)].

فالتصريح في هؤلاء الآيات بأن حكمة خلقه للخلق هي ابتلاؤهم أيهم أحسن عملاً يفسر قوله:﴿لِيَعْبُدُونِ ﴾ في الآية[(٥)].

ومن الآيات المفسرة أيضاً : قوله سبحانه ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا

(١) سورة الملك، الآية ٢ .

(٢) سورة الإنسان، الآية ٢ .

(٣) سورة الكهف، الآية ٧ .

(٤) سورة هود، الآية ٧ .

(٥) انظر أضواء البيان ٧ / ٦٧٣ .

﴿لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا﴾[1] وقولــه : ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾[2] فهذا هو الذي أراده الله من خلق خلقه أن يأمرهم بألا يعبدوا إلا الله .

وأما الشاهدة فنحو قوله سبحانه : ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾[3] وقوله : ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَـٰكُمْ عَبَثًا﴾[4] فهذا إنكار من الرب سبحانه على أن يحسب الإنسان أنه يترك سدى بلا أمر ولا نهي يبتليهم به، وأنكر سبحانه عليه ظنه أن ما يمده به ربه من مال وبنين هو لمجرد تزويده بالخيرات، وبيّن أن الأمر ليس كذلك وأن خلقه إنما هو لتكليفه وابتلائه فإن عبد الله فهو أهل لفضل الله في الدنيا و الآخرة، قال سبحانه : ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَـٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[5].

---

(١) سورة التوبة، الآية ٣١.

(٢) سورة البينة، الآية ٥ .

(٣) سورة القيامة، الآية ٣٦ .

(٤) سورة المؤمنون، الآية ١١٥ .

(٥) سورة المؤمنون ، الآيات ٥٥ – ٦٢ .

وهذا الإنكار من الرب شاهد لمعنى قوله ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾ في آية الذاريات هذه .

فهذه الأدلة ودلائل أخر ستأتي في الجواب عن الأقوال الأخرى تدل على أن معنى ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾ : لآمرهم أن يعبدوني .

وهذا التفسير هو قول علي بن أبي طالب ﷺ[١] ، فقد ذكر عنه أنه قال في تفسير الآية: « إلا ليعبدون، أي: إلا لآمرهم أن يعبدوني وأدعوهم إلى عبادتي»[٢] ، وهو قول مجاهد أيضاً فقد قال : « لآمرهم وأنهاهم»[٣] ووصف ابن تيمية هذا المروي عن مجاهد بأنه معروف بالإسناد الثابت عنه[٤]. وقال عكرمة : «إلا ليعبدون ويطيعون، فأثيب العابد، وأعاقب الجاحد»[٥]، وعن الربيع بن أنس : «ما خلقتهما إلا للعبادة»[٦] ونسبه ابن عطية لابن عباس أيضاً[٧]. وهذا المعنى هو الصواب؛ للأدلة المذكورة .

---

(١) انظر تفسير السمعاني ٥ / ٢٦٤ ، وزاد المسير ٤٢/٨ ، وتفسير القرطبي ١٧ / ١٥٥، وتفسير النسفي ١٨٨/٤ .

(٢) تفسير البغوي ٢٣٥/٤ ، وانظر درء تعارض العقل والنقل ٤٧٧/٨ ، والفتاوى ٥٢/٨ .

(٣) تفسير السمعاني ٥ / ٢٦٤ ، وتفسير القرطبي ٥٦/١٧ ، ودرء التعارض ٤٧٨/٨ .

(٤) الفتاوى ٥٢/٨ .

(٥) تفسير القرطبي ٥٦/١٧ .

(٦) درء التعارض ٤٧٨/٨ والفتاوى ٥٢/٨ وتفسير ابن كثير ٢٣٩/٤ .

(٧) المحرر الوجيز ١٨٢/٥ . وانظر روح المعاني ٢١/٢٧ .

ولكن ثمة أقوال أخرى لا يسلم حمل الآية على واحد منها من خطإ .

وهذه الأقوال هي :

القول الأول: أن المعنى: إلا ليخضعوا إليَّ ويتذللوا، إلا لأستعبدهم ، فالمراد بالعبادة تعبيده لهم ، وقهره لهم ونفوذ قدرته ومشيئته فيهم وأنه أصارهم إلى ما خلقهم له[1]. فهي عبودية القهر والخضوع لربوبيته لا العبودية الشرعية عبودية الطاعة وامتثال الأمر والنهي ، وعلى هذا المعنى حمل ابن تيمية رحمه الله المروي عن زيد بن أسلم أنه قال في : ﴿إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ : «ما جبلوا عليه من الشقاء والسعادة»[2] وقول وهب بن منبه : «جبلهم على الطاعة وجبلهم على المعصية»[3]، وذكر ابن تيمية رحمه الله أن قول ابن عباس رضي الله عنهما في الآية: «إلا ليقروا بالعبودية طوعاً وكرهاً»[4] فُسِّر بهذا

---

(١) انظر تفسير السمعاني ٥/٢٦٤ ، وتفسير البغوي ٤/٢٣٥ ، وزاد المسير ٨/٤٣ ، وتفسير القرطبي ١٧/٥٦ ، والفتاوى ٨/٤٥ .

(٢) أخرجه الطبري في التفسير ٢٧/٨ ، وانظر تفسير البغوي ٤/٢٣٥ ، وتفسير القرطبي ١٧/٥٦ ، والدر النثور ٦/١١٦ ، ونقله ابن تيمية عن ابن أبي حاتم في الدرء ٨/٤٨٠ ، وانظر الفتاوى ٨ / ٤٥ .

(٣) نقله ابن تيمية في الدرء ٨/٤٨٠ عن ابن أبي حاتم .

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير ١٠/٣٣١٣ رقم ١٨٦٦٨ ، والطبري في التفسير ٢٧/٨ .

المعنى المذكور ، ولكنه صحح تفسيره بمعنى آخر هو القول الثاني الآتي[١]. وقد قال القرطبي في قول ابن عباس هذا : «فالكره ما يُرى فيهم من أثر الصنعة»[٢] .

وهذا المعنى وإن كان صحيحاً في نفسه إلا أنه ليس هو مراد الآية لوجوه :

أولاً : أن المخلوقات كلها خاضعة لله متذللة له نافذة فيها قدرته ومشيئته ، فليس هذا خاصاً بالجن والإنس، وهما المذكوران دون سواهما ، فذكرهما خاصة يدل على عبودية مرادة منهما خاصة دون سواهما، وهي عبودية الطاعة والامتثال للأمر الشرعي والابتلاء فيها .

ثانياً : ما تقدم من أنه لا يراد بعبادة الله في القرآن « إلا العبادة التي أمرت بها الرسل، وهي عبادته وحده لا شريك له ، والمشركون لا يعبدون الله ، بل يعبدون الشيطان، وما يدعونه من دون الله ، سواء عبدوا الملائكة أو الأنبياء والصالحين أو التماثيل و الأصنام المصنوعة ، فهؤلاء المشركون قد عبدوا غير الله، كما أخبر الله بذلك فكيف يقال : إن جميع الإنس والجن عبدوا الله؛ لكون قدر الله جارياً عليهم ؟! والفرق ظاهر بين عبادتهم إياه التي تحصل بإرادتهم

---

(١) انظر الدرء ٨/٤٨٠ والفتاوى ٨/٤٩ .

(٢) تفسير القرطبي ١٧ / ٥٥ .

واختيارهم وإخلاصهم الدين له وطاعة رسوله ، وبين أن يعبِّدهم هو وينفذ فيهم مشيئته ، وتكون عبادتهم لغيره للشيطان وللأصنام من المقدور))[1].

ثالثاً : أن قوله : ﴿لِيَعۡبُدُونِ﴾ يقتضي فعلاً يفعلونه هم ، وكونه ينفذ فيهم مشيئته ليس فيه إلا فعله فقط، ليس فيه فعل لهم[2].

رابعاً : أن الآية واردة في سياق ذم من لم يعبده مفرداً إياه بالعبادة وذكر عقوبته في الدنيا و الآخرة ، كل سياق السورة في ذلك كما تقدم، فلو كان المراد بالعبادة الخضوع لربوبيته لكانت وقعت منهم ، ولا محل لذمهم ووعيدهم ، والآية فيها معنى التوبيخ لمن لم يعبده مع كونه خلق لذلك .

القول الثاني : أن المعنى : إلا ليذعنوا ويقروا لي بالعبودية ،وقد وقعت منهم جميعهم طوعاً وكرهاً ، وهذا قول ابن عباس المتقدم قريباً : ((إلا ليقروا بالعبودية طوعاً وكرهاً)) وهو اختيار ابن جرير الطبري[3]، وقال ابن تيمية في قول ابن عباس هذا :((وهذه العبودية

(١) هذا نص كلام ابن تيمية في الفتاوى ٨ / ٤٧ .

(٢) انظر درء التعارض ٨ / ٤٨١ .

(٣) انظر تفسيره ٨/٢٧ .

كقولـــه : ﴿ وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا ﴾ وقولـــه : ﴿ وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا ﴾ »[1] قـــال رحمه الله : « وفسرت طائفة (الكره) بأنه جريان حكم القدر فيكون كالقول قبله» يقصد القول بخضوعهم لربوبيته ، قال : «والصحيح أنه انقيادهم لحكمه القدري بغير اختيارهم[2] ، كاستسلامهم عند المصائب وانقيادهم لما يكرهون من أحكامه الشرعية ، فكل أحد لا بد له من انقياده لحكمه القدري والشرعي ، فهذا معنى صحيح» قال رحمه الله : «لكن ليس هو العبادة»[3] وقوله : «ليس هو العبادة» هو وجه دال على أن هذا المعنى غير مراد بالآية و أن العبادة في إطلاق الشرع لا يراد بها هذا المعنى .

وثمة وجه آخر وهو المذكور رابعاً في نقد القول الأول الذي قبل هذا .

القول الثالث : أن المعنى : إلا ليوحدون ، وقد وقع التوحيد منهم جميعاً، فأما المؤمنون فيوحدونه في الرخاء والشدة، وأما الكافرون

---

(١) الفتاوى ٨/٤٩ والآية الأولى رقمها ٨٣ من سورة آل عمران والثانية رقمها ١٥ من سورة الرعد .

(٢) هكذا في موضعه والصواب الموافق لسياق الكلام : «باختيارهم» لأنهم يختارون الاستسلام للمصائب كارهين .

(٣) الفتاوى ٨ / ٤٩ .

فيوحدونه في الشدة والبلاء دون الرخاء، بدليل قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾[1] وهذا قول الكلبي[2] قال الألوسي: (ولا يخفى بعد ذلك عن الظاهر والسياق)[3] وهو كما قال.

وقد ذكر الألوسي قولاً قريباً من هذا، وهو أن التوحيد واقع منهم جميعاً في الآخرة وأن توحيد المشرك في الآخرة يدل عليه قوله سبحانه: ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾[4] وهذا أشد بعداً من سابقه.

القول الرابع: أن المعنى: خلقهم للعبادة، وقد وقعت منهم جميعهم إلا أن من العبادة عبادة تنفع ومن العبادة عبادة لا تنفع ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾[5] هذا منهم عبادة وليس تنفعهم مع شركهم، وهذا قول السدي[6]. ولكن مجرد الإقرار بالخالق ليس هو العبادة المرادة، ولو كان هو العبادة المرادة بالآية، لم يكن ثمة وجهٌ لذم ووعيد هؤلاء المذمومين في الآيات؛ لأنهم أتوا بهذا الإقرار.

(١) سورة العنكبوت، الآية ٦٥ .

(٢) انظر درء التعارض ٨ / ٤٧٩ ، وتفسير القرطبي ٥٦/١٧ .

(٣) روح المعاني ٢٧ / ٢١ .

(٤) سورة الأنعام، الآية ٢٣ ، وانظر المرجع السابق .

(٥) سورة لقمان، الآية ٢٥ .

(٦) انظر درء التعارض ٤٧٨/٨ ، والفتاوى ٥٠/٨ وتفسير ابن كثير ٢٣٩/٤ .

القول الخامس : أن المعنى : إلا ليعرفون ، وهو مروي عن مجاهد[١] وابن جريج[٢] وقتادة[٣] ، قال البغوي : «وهذا أحسن؛ لأنه لو لم يخلقهم لم يعرف وجوده وتوحيده، دليله قوله تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ »[٤] قال ابن تيمية في هذا القول : «هذا المعنى صحيح ، وكونه إنما عرف بخلقهم يقتضي أن خلقهم شرط في معرفتهم ، لا يقتضي أن يكون ما حصل لهم من المعرفة هو الغاية التي خلقوا لها ، وهذا من جنس قول السدي، فإن هذا الإقرار العام هم مشركون[٥] فيه ، كما قال : ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ ﴾ لكن ليس هذا هو العبادة»[٦] وقال الألوسي :«وتعقب بأن المعرفة الصحيحة لم تتحقق في كل بل بعض قد أنكر وجوده عز وجل كالطبيعيين اليوم»[٧] .

وقد وجَّه أبو السعود هذا القول توجيهاً لطيفاً، فجعل المراد بالمعرفة

(١) انظر تفسير البغوي ٤/٢٣٥ ، والفتاوى ٨/٥٠ والدرء ٨/٤٧٩ .

(٢) انظر الفتاوى ٨/٥٠ وتفسير ابن كثير ٤/٢٣٩ .

(٣) انظر الفتاوى ٨/٥٠

(٤) تفسيره ٤/٢٣٥ ، ونسب ابن تيمية ذات الكلام إلى الثعلبي في الدرء ٨/٤٧٩ .

(٥) هكذا في الأصل ولعلها : «مشتركون».

(٦) الفتاوى ٨ / ٥٠-٥١ .

(٧) روح المعاني ٢٧ / ٢١ .

المعرفة المعتبرة الحاصلة بعبادته، لا ما يحصل بغيرها كمعرفة الفلاسفة[1].

وهذه الأقوال الخمسة جميعها واردة على أن المراد بالجن والإنس عام غير مخصوص .

القول السادس : أن الآية خاصة في أهل طاعته من الفريقين الذين وقعت منهم العبادة ، فيكون المعنى من وجدت منه العبادة فهو مخلوق لها ، ومن لم توجد منه، فليس مخلوقاً لها .

وهو قول سعيد بن المسيب، إذ قال : «ما خلقت من يعبدني إلا ليعبدني» وقال الضحاك والفراء وابن قتيبة: هذا خاص لأهل طاعته[2].

وكذا قال الكلبي وسفيان[3].

ونسبه ابن عطية لزيد بن أسلم أيضاً[4]. واستدل له البغوي[5] بقراءة ابن عباس : (وما خلقت الجن والإنس من المؤمنين إلا ليعبدون)[6]

(١) انظر تفسيره ٤ / ١٤٥ .

(٢) انظر زاد المسير ٨ / ٤٢ ، والفتاوى ٨ / ٤٠ .

(٣) تفسير البغوي ٤ / ٢٣٥ ، وانظر تفسير القرطبي ٥٥/١٧ .

(٤) المحرر الوجيز ٥ / ١٨٣ .

(٥) انظر تفسيره ٤ / ٢٣٥ .

(٦) نسب هذه القراءة إلى النبي ﷺ ابن خالويه في مختصر القراءات الشاذة ١٤٥ ، وكذا ابن عطية في المحرر ٥ / ١٨٣ ، ونسبها إلى أبي بن كعب السمعاني في تفسيره ٥ / ٢٦٤ .

مع قوله في الآية الأخرى ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ فيكون من خلقهم لجهنم لم يخلقهم لعبادته .

وهذا القول كما قال ابن تيمية رحمه الله : «هو قول ضعيف مخالف لقول الجمهور ولما تدل عليه الآية ، فإن قصد العموم ظاهر في الآية، وبين بياناً لا يحتمل النقيض ، إذ لو كان المراد المؤمنين فقط لم يكن فرق بينهم وبين الملائكة ، فإن الجميع قد فعلوا ما خلقوا له ، ولم يذكر الإنس والجن عموماً . ولم تذكر الملائكة مع أن الطاعة والعبادة وقعت من الملائكة دون كثير من الإنس و الجن»[1] فذكر رحمه الله في كلامه هذا وجهين من الجواب :

الأول : لفظ الآية وظهور العموم فيه .

الثاني : عدم ذكر الملائكة ولو كانت الآية خاصة بالمؤمنين لذكروا فإن الله خلقهم عابدين لا تمكن منهم المعصية .

ثم ذكر رحمه الله بعد الكلام المتقدم وجهاً ثالثاً وهو سياق السورة وموقع الآية فيه ، فإنه استدل بذكر عقوبات الدنيا والآخرة في السورة لمن لم يعبده والوعيد الذي توعد به من لم يعبده وقوله بعد الآية ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ كل هذا يدل على أن الآية تقتضي ذم وتوبيخ من لم يعبد الله؛ لأن الله خلقه لشيء، فلم يفعل

(١) الفتاوى ٨ / ٤٠ – ٤١ .

ما خلق له، فإذا قيل: لم يرد إلا المؤمنين كان هذا مناقضاً لسياق السورة وصار كالعذر لمن لا يعبده ممن ذمه الله ووبخه ، وغايته أن يقول: أنت لم تخلقني لعبادتك وطاعتك ، ولو خلقتني لها لكنت عابداً وإنما خلقت هؤلاء فقط لعبادتك ، وأنا خلقتني لأكفر بك وأشرك بك وقد فعلت ما خلقتني له كما فعل أولئك المؤمنون ما خلقتهم له ، قال رحمه الله : «فهذا وأمثاله مما يلزم أصحاب هذا القول ، وكلام الله منزه عن هذا»[1].

فجميع هذه الأقوال الستة غلط ، ومنشأ الغلط في حمل الفعل (يعبدون) على الوقوع ، ثم من حمل العبادة على العبادة الشرعية عبادة الطاعة والامتثال جعل الآية خاصة بالمؤمنين؛ لأنهم هم الذين وقعت منهم عبادة الطاعة دون سواهم، أو جعلها عامة واعتبر توحيد الكفار حال الشدة هو العبادة الواقعة منهم، أو اعتبر إقرارهم بالربوبية هو العبادة الواقعة منهم، ولكن لا تنفعهم . ومن حمل العبادة على العبادة العامة عبادة القهر والخضوع، جعل الآية عامة؛ لأن هذه العبودية العامة واقعة من العموم، وكذا من حمل العبادة على المعرفة. والصواب ما قدمناه من أن المراد بالعبادة العبادة الشرعية عبادة

---

(١) الفتاوى ٨ / ٤١ – ٤٣ .

الطاعة والامتثال وأن الفعل (يعبدون) معبر به عن إرادته لا عن وقوعه، وأن ما وصف بكونه مراداً بلا وقوع له فليس المراد به إلا إرادة التكليف به، و الأمر به فقط ، فليس المراد بقوله : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ وقوع العبادة بل الأمر بها على وجه الابتلاء . والله الموفق للصواب لا شريك له.